شبهات وردود

شبهة الرجل الذي أوصي بتحريق نفسه

د.ماجد كارم

شبهة الرجل الذي أوصي بتحريق نفسه !!

احتج من يري العذر بالجهل بحديث الرجل الذي أوصى بتحريق نفسه ، وقال بأنه رجل قد شك في قدرة الله على إعادته فغفر الله له بجهله. والحديث هو ما رواه البخاري وغيره من حديث حذيفة (٣٤٧٩) وأبي سعيد الخدري (٣٤٧٨) وأبي هريرة (٣٤٨١) ولفظ الحديث لـأبي هريرة

((عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ على رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ فَقَالَ اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ قَالَ يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ فَغَفَرَ لَهُ وَقَالَ غَيْرُهُ مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ)).

مذاهب العلماء في فهم هذا الحديث

ولكن بداية أقول

فإن قيل: هذا الرجل جهل صفة القدرة ، فعذر بجهله. قلنا: فما الذي دفع العلماء إذن إلى صرف الحديث عن ظاهره واللجوء إلى تأويله ، إذا كان الأمر عندهم بهذه البساطة ؟ ؟ ؟ ؟

ألا يكفي أن يقولوا مثلاً: هو جاهل فعذر بجهله ؟ ؟ وما كانت بهم حاجة إلى كل هذه التأويلات ؟ إلا أن يكون العلماء قد رأوا أن هذه "قضية عين" لا تقوى على معارضة قواعد كلية ثابتة وأدلة مستفيضة ، سبق أن تقررت عندهم في صورة أصل كلي ، مما أوجب أن تتنزل هذه القضية على مقتضى هذا الأصل. وخاصة أن الحديث نفسه يحتمل أوجهاً كثيرة غير هذا الوجه الذي يعارض الأصل المقرر ؟

لذلك قال الشاطبي

"وقد علم العلماء ان كل دليل فيه اشتباه واشكال ليس بدليل في الحقيقة حتى يتبين معناه و يظهر المراد منه ، ويشترط في ذلك الا يعارضه اصل قطعي ،فان لم يظهر معناه لاجمال او اشتراك او عارضه قطعي فليس بدليل ،لان حقيقة الدليل ان يكون ظاهرا في نفسه و دالا على غيره ، والا احتيج الى دليل عليه ،فان دل الدليل على عدم صحته فاحرى ان لا يكون دليلا "الإعتصام ١\٢٣٩

ويقول : " إذا ثبتت قاعدة عامة أو مطلقة فلا يؤثر فيها معارضة قضايا الأعيان ولا حكايات الأحوال) (الموافقات جـ٣ ص ٣٦٠)

المذهب الاول :

الذين ذهبوا إلى أن " قَدَرَ " بمعنى " ضيق " أو " قَضَى "

وقد ذهب هؤلاء العلماء إلى أن لفظة " لئن قدر على ربي " هي بمعنى " قضى " فيكون المعني لئن قضى على العذاب ليعذبني أو بمعنى ضيق " فيكون المعني لئن ضيق الله على فأعادني وهو قادر على أن يعيدني ليعذبني "

وقد احتج أهل هذا المذهب بحجج منها :

١ .ما عند **البخاري** من حديث أبي سعيد الخدري " **وإن يقدم على الله يعذبه** " الحديث رقم : (٦٤٨١).

٢ .ما أخرج **مسلم** في صحيحه من حديث أبي سعيد .أيضا .في القصة نفسها " **فَإِنِّى لَمْ أَبْتَهِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَىَّ أَنْ يُعَذِّبَنِى**) الحديث رقم : (٧١٦٠) .

وقالوا بأن هذا أمرا معروفا في لغة العرب ويؤيده ظاهر القرآن (أي أن قدر تأتي بمعنى قضى وضيق) .
ووجه احتجاجهم بهاتين الروايتين أنه ليس فيهما ما يدل على ما جاء في ظاهر الروايات الأخرى من أن الرجل كان شاكا في قدرة الله .

وقد اعترض **ابن تيمية** .على من يتأول قدر بمعنى ضيق بأنه لا أصل لذلك في لغة العرب حيث قال (قدر بمعنى ضيق لا أصل له في اللغة) [الفتاوى (١١ / ٤١٠)].

وقد أجاب أهل هذا القول على هذا الاعتراض ؛ بأن نفي أن تكون قدر بعني " ضيق " من لغة العرب ؛ هو مخالف لما جاء عن أئمة اللغة ، وعن أئمة التابعين ، بل هو مروي عن حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنه .
فقد نقل **القرطبي** في تفسيره عند قول الله تعالى : **{ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ }**

(**وذكر الثعلبي وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه:** فظن أن لن نضيق عليه. قال الحسن: هو من قوله تعالى:" اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ" «٣» [الرعد: ٢٦] أي يضيق. وقوله" وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ" «٤» [الطلاق: ٧]. قلت: وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن. وقدر وقدر وقتر وقتر بمعنى ، أي ضيق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي. وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم ، أي فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة ، قاله قتادة ومجاهد والفراء. مأخوذ من القدر وهو الحكم)
[تفسير القرطبي (١١ / ٣٣١)

وقال الشوكاني: (وذهب جمهور العلماء أن معناها : فظنّ أن لن نضيق عليه ، كقوله : { يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ } [الشورى : ١٢] ، أي يضيق ، ومنه قوله : { وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ } [الطلاق : ٧] . يقال : وقَدَر وقُدِر وقَتَر وقُتِر ، أي ضيق . وقيل : هو من القدر الذي هو القضاء والحكم ، أي فظنّ أن لن نقضي عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج ، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة) [فتح القدير للشوكاني (٥ / ٧٣)]

وقدا اختار هذا القول **ابن جرير** .حيث قال (وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب ، قول من قال: عَنَى به: فظنّ يونس أن لن نحبسه ونضيق عليه) [تفسير ابن جرير الطبري (١٨ / ٥١٦)].

بهذا تعلم أن " قدر " تأتي في لغة العرب بمعنى " ضيق " ؛ كما نُقِلَ عن أهل اللغة ، وجمهور العلماء ؛ من التابعين وغيرهم .

وكذلك اعترض **ابن حزم** .بأنه لو سلم لهم أن قدر بعني ضيق ؛ لم يكن في أمره بالتحريق والذر بعد موته فائدة . فقال: (وقد قال بعض من يحرف الكلم عن مواضعه أن معنى لئن قدر الله على إنما هو لئن ضيق الله على كما قال تعالى ((وأما إذا ما ابتلاه فقد عليه رزقه))

وقال بعضهم وهذا تأويل باطل لا يمكن لأنه كان يكون معناه حينئذ لئن ضيق الله على ليضيقن على وأيضا فلو كان هذا لما كان لأمره بأن يحرق ويذر رماده معنى ولا شك في أنه إنما أمره بذلك ليفلت من عذاب الله تعالى) [الفصل للإمام ابن حزم ج ٣ / ١٤١]

وقد أجاب أصحاب هذا المذهب عن هذا الاعتراض بأنه فعل ذلك بنفسه إزراء لها وتحقيرا وغضبا عليها لإسرافها في العصيان ، أو قد يكون ذلك جائزا في شرعهم تصحيحا وتتمة للتوبة.

قال **ابن أبي جمرة** مجيبا عن هذا الاعتراض بقوله :
(قال ابن أبي جمرة كان الرجل مؤمنا لأنه قد أيقن بالحساب وأن السيئات يعاقب عليها وأما ما أوصى به فلعله كان جائزا في شرعهم ذلك لتصحيح التوبة فقد ثبت في شرع بني إسرائيل قتلهم أنفسهم لصحة التوبة) [فتح الباري ج ١١ / ٣١٥].

ويقول **القاضي عياض** حاكيا عن **ابن جرير** وغيره من أهل العلم ؛ في إجابتهم عن ما في هذا الحديث من تحريق الرجل لنفسه (ويكون ما فعله بنفسه إزراء عليها وغضبا لعصيانها) [الشفاء للقاضي عياض ج ٢/٢٣٩].

وقال النووي (وَقِيلَ : إِنَّمَا وَصَّى بِذَلِكَ تَحْقِيرًا لِنَفْسِهِ ، وَعُقُوبَة لَهَا لِعِصْيَانِهَا ، وَإِسْرَافهَا ، رَجَاء أَنْ يَرْحَمهُ اللَّه تَعَالَى) [النووي ١٢٤/٩].فتحصل من أجوبة هؤلاء العلماء أن الرجل فعل ذلك الفعل ليكفر به عن ما قصر به في جنب الله.وقد جاء في رواية (لم يبتئر) بمعنى لم يدخر عملا صالحا ؛ توبة منه إلى الله وإنابة إليه فغفر الله له ، ولم يفعل ذلك ظنا منه أن الله غير قادر على جمعه وإعادته.

قال المازري (٥٣٦-٤٥٣هـ) : (لا يصح حمل هذا الحديث على أنه أراد بقوله (قَدَرَ عَلَيَّ) من القدرة ، لأنه من شك في كون الباري سبحانه قادراً عليه فهو كافر غير عارف به ، وقد ذكر في آخر الحديث أن الله قال له : (مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ أَوْ مَخَافَتُكَ) فغفر له بذلك ، والكافر لا يخشى الله ولا يغفر الله له ، فإذا ثبت أنه لا يصح حمل الحديث على هذا المعنى فيحمل على أحد وجهين : إما أن يكون المراد به (لئن قَدَرَ عَلَيَّ) بمعنى قدَّر عليَّ العذاب ، يقال : قَدَرَ وقَدَّرَ بمعنى واحد ، أو يكون أراد (قَدَرَ عليَّ) بمعنى ضيَّقَ عليَّ ، قال الله تعالى : فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ (الفجر: ١٦) ، وهكذا القول في قوله تعالى : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) . الْمُعْلِمْ بفوائد مسلم للمازرِي (٣٣٤/٣) .

.

قال ابن عبد البر القرطبي الأندلسي (٤٦٣-٣٦٨هـ) : (وقال آخرون أراد بقوله (لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ) أي لئن كان قدَّر الله عليه ، والتخفيف في هذه اللفظة والتشديد سواء في اللغة ، فقَدَرَ هنا عند هؤلاء من القدر الذي هو الحكم ، وليس من باب القدرة والاستطاعة في شيء ، وهو مثل قوله عز وجل : وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) ، وللعلماء في تأويل هذه اللفظة في هذه الآية قولان : أحدهما : أنها من التقدير والقضاء ، والآخر : أنها من التقتير والتضييق ، وقد ذكرنا من شواهد الشعر العربي على الوجهين جميعاً في التمهيد ما فيه كفاية . والمعنى في قول هؤلاء والله أعلم لئن ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي ولم يغفر لي وجازاني على ذنوبي ليكونن ما ذكر .
والوجه الآخر : كأنه قال (لئن كان قد سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على جرمه ليعذبنني على ذنوبي عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين غيري) . وهذا منه خوف ويقين وإيمان وتوبيخ لنفسه وخشية لربه وتوبة على ما سلف من ذنوبه ، هذا كله لا يكون إلا لمؤمن مصدق مؤمن بالبعث والجزاء ، وفي القدر لغتان مشهورتان (قَدَّرَ الله) بالتشديد و (قَدَرَ الله) بالتخفيف ، ذكره ابن قتيبة عن الكسائي وذكره ثعلب وغيره . وقد ذكرناه والشواهد عليه في التمهيد والحمد لله) .الاستذكار لابن عبد البر (٣٦٨/٨-٣٧٠)

.

وقال أبو عمر ابن عبد البر القرطبي الأندلسي (٤٦٣-٣٦٨هـ) في التمهيد : (وقال آخرون أراد بقوله : (لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ) من القدر الذي هو القضاء ، وليس من باب القدرة والاستطاعة في شيء . قالوا : وهو مثل قول الله عز وجل في ذي النون : إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) ، وللعلماء في تأويل هذه اللفظة قولان : أحدهما : أنها من التقدير والقضاء ، والآخر أنها من التقتير والتضييق ، وكل ما قاله العلماء في تأويل هذه الآية فهو جائز في تأويل هذا الحديث في قوله (لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ) فأحد الوجهين تقديره كأن الرجل قال : (لئن كان قد سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على

جرمه ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين غيري) ، والوجه الآخر تقديره : (والله لئن ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي وجزائي على ذنوبي ليكونن ذلك) ، ثم أمر بأن يحرق بعد موته من إفراط خوفه ، قال ابن قتيبة : (بلغني عن الكسائي أنه قال يقال هذا قدر الله وقدره ، قال : ولو قرئت أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا (الرعد: ١٧) مخففاً ، أو قرئت وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (الأنعام: ٩١) مثقلاً جاز ، وأنشد :

وما صب رجلي في حديد مجاشع مع القدر إلا حاجة لي أريدها

أراد القدر ، قال: ويقال هذا على قدر هذا وقدره ، قال الأصمعي: أنشدني عيسى بن عمر لبدوي :

كل شيء حتى أراك متاع وبقدر تفرق واجتماع

ومن هذا حديث ابن عمر عن النبي عليه السلام في الهلال : « فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدِرُوا لَهُ ».صحيح مسلم ، كتاب الصيام / باب وجوب صيام رمضان لرؤية الهلال ، ط. المكنز (حديث رقم : ٢٥٥٤ ، ص ٥١١) ، الطبعة السلطانية (١٢٢/٣) .

.

وعن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب أنه قال في قول الله عز وجل : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) قال هو من التقتير ليس من القدرة ، يقال منه : قَدَرَ الله لك الخير يقدره قدراً بمعنى قدَّر الله لك الخير ، وأنشد ثعلب :

ولاَ عَائِداً ذَاكَ الزَّمَانُ الذِّي مَضَى تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشُّكْرُ

يعني ما تقدره وتقضي به يقع ، يعني ينزل وينفذ ويمضي .

قال أبو عمر : هذا البيت لأبي صخر الهذلي في قصيدة له أولها :

لليلى بذات الجيش دار عرفتها وأخرى بذات البين آياتها سطر

وفيها يقول :

وَلَيْسَ عَشِيَّاتُ الْحِمَى بِرَوَاجِعٍ لَنَا أَبَدًا مَا أَبْرَمَ السَّلَمُ النَّضْرُ

ولاَ عَائِداً ذَاكَ الزَّمَانُ الذِّي مَضَى تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشُّكْرُ

السلم شجر من العضاه يدبغ به ، والنضر النضارة والتنعم ، وأبرم السلم أخرج برمته ، وأبرمت الأمر أحكمته ، وقال غيره :

فما الناس أردوه ولكن أقاده يد الله والمستنصر الله غالب

فإنك ما يقدر لك الله تلقه كفاحا وتجلبه إليك الجوالب

وقال ابن قتيبة في قول الله عز وجل : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) أي لن نضيق عليه ، قال فلان مقدر عليه ومقتر عليه ، ومنه قوله عز وجل : فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ (الفجر: ١٦) أي ضَيَّقَ عليه في رزقه ، وقوله : وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ (الطلاق: ٧) أي ضُيّق عليه في رزقه) . التمهيد لابن عبد البر (٤٥/١٨-٤٢) .

قال النووي (٦٧٦-٦٣١هـ) : (اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي تَأْوِيل هَذَا الْحَدِيث ، فَقَالَتْ طَائِفَة : لاَ يَصِحّ حَمْل هَذَا عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ نَفْيَ قُدْرَة اللَّه ، فَإِنَّ الشَّاكّ فِي قُدْرَة اللَّه تَعَالَى كَافِر ، وَقَدْ قَالَ فِي آخِر الْحَدِيث : إِنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَة اللَّه تَعَالَى ، وَالْكَافِر لاَ يَخْشَى اللَّه تَعَالَى ، وَلاَ يُغْفَر لَهُ ، قَالَ هَؤُلاَءِ : فَيَكُون لَهُ تَأْوِيلاَنِ أَحَدهمَا أَنَّ مَعْنَاهُ : لَئِنْ قَدَّرَ عَلَيَّ الْعَذَاب ، أَيْ : قَضَاهُ ، يُقَال مِنْهُ قَدَرَ بِالتَّخْفِيف ، وَقَدَّرَ بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى وَاحِد . وَالثَّانِي : إِنَّ قَدَرَ هُنَا بِمَعْنَى ضَيَّق عَلَيَّ ، قَالَ اللَّه تَعَالَى : فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ (الفجر: ١٦) ، وَهُوَ أَحَد الأَقْوَال فِي قَوْله تَعَالَى : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧))صحيح مسلم بشرح النووي (٧١/١٧) .

.

قال شمس الدين الكرماني (٧٨٦-٧١٧هـ) : (فإن قلت : إن كان مؤمناً فلم شك في قدرته تعالى وإن كان كافراً فكيف غفر له ، قلت : كان مؤمناً بدليل الخشية ومعنى (قَدَرَ) مخففاً ومشدداً حكم وقضى أو ضيق) . صحيح البخاري بشرح الكرماني ، (١٠٨/١٤) و (١٩٣/٢٥) .

.

قال أبو عبد الله ابن عبد الحق اليَفْرَنِّي التِّلْمِسَاني (٦٢٥-٥٣٦هـ) : (وقوله (لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ) قيل : أراد : لَئِنْ قَدَّرَ اللهُ عَلَيَّ ، والتخفيف والتشديد في هذه اللفظة سواءٌ في اللغة) الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه على الأبواب للتِّلْمِسَاني (٢٧٤/١) .

.

قال بدر الدين العيني (٨٥٥-٧٦٢هـ) : (فإن قلت : إن كان هذا الرجل مؤمناً فلم شك في قدرة الله تعالى حيث قال : (فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا) على ما يأتي عن قريب في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وإن لم يكن فكيف غفر له ، قلت : كان مؤمناً بدليل الخشية ومعنى (قدر) مخففاً ومشدداً حكم وقضى أو ضيق) . عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (٦٢/١٦) .

.

ونقل هذا المذهب في التأويل جلال الدين السيوطي (٩١١-٨٤٩هـ) عن ابن عبد البر القرطبي (٣٦٨-٤٦٣هـ) حيث قال : (« لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ » قال ابن عبد البر : هو من القدر الذي هو القضاء وليس من باب القدرة والاستطاعة كقوله تعالى : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) ، وقيل بمعنى ضيق كقوله تعالى : وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ (الطلاق: ٧)) . ونقله أيضاً عن النووي حيث قال (« لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ » قال النووي هو بالتخفيف بمعنى قدَّر بالتشديد أي قضى ، أو هو بمعنى ضيَّق وليس شكاً في القدرة) تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك للسيوطي (٢٣٩/١-٢٣٨) .

.

قال القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي المالكي (٤٩٤-٤٠٣هـ) : (فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ خَافَ تَفْرِيطَهُ ، فَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يُحَرِّقُوهُ وَيَذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ وَنِصْفَهُ فِي الْبَرّ ، وَذَلِكَ عَلَى وَجْهَيْنِ :
أَحَدُهُمَا : عَلَى وَجْهِ الْفِرَارِ مَعَ اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ غَيْرُ فَائِتٍ كَمَا يَفِرُّ الرَّجُلُ أَمَامَ الأَسَدِ مَعَ اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ لاَ يَفُوتُهُ سَبْقًا وَلَكِنَّهُ يَفْعَلُ نِهَايَةَ مَا يُمْكِنُهُ فِعْلُهُ (هذا على تأويل من قال أن قَدَرَ في الحديث من التقدير بمعنى تقدير الإعادة) ، وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنْ يَفْعَلَ هَذَا خَوْفًا مِنَ الْبَارِي تَعَالَى وَتَذَلُّلاً وَرَجَاءَ أَنْ يَكُونَ هَذَا سَبَبًا إِلَى رَحْمَتِهِ

وَلَعَلَّهُ كَانَ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِ.(هذا على تأويل من قال أن قَدَرَ في الحديث من التضييق أو على تأويل من قال أنه قدر في الحديث من التقدير بمعنى تقدير العذاب .)

وَقَوْلُهُ (فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ) يُرِيدُ لَئِنْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَاقَبَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لِيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ يُقَالُ قَدَرَ عَلَيْهِ بِمَعْنَى ضَيَّقَ عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) ، وَقَالَ : وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ (الطلاق: ٧) ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُرِيدَ بِأَمْرِهِ أَنْ يُذْرَى نِصْفُهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفُهُ فِي الْبَحْرِ أَنَّهُ رَجَاءَ أَنْ يُعْجِزَ اللَّهَ بِذَلِكَ وَاعْتَقَدَ بِأَنَّ الْبَارِيَ لَا يَقْدِرُ عَلَى إعَادَتِهِ مَعَ هَذَا الْفِعْلِ ؛ لِأَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ كَفَرَ ، وَالْكَافِرُ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء: ٤٨) ، وَقَوْلُهُ : إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ (الأعراف: ٤٠) ، وَقَدْ قِيلَ مَعْنَاهُ (إنْ قَدَرَ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَنِي وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَغْفِرَ لِي ليعذبني عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) .

وَقَوْلُهُ (فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ) يُرِيدُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَطَاعَ أَمْرَ اللَّهِ فَجَمَعَ مَا فِيهِ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ ، ثُمَّ أَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ : (لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟) ، يُرِيدُ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ إحْرَاقِهِ وَتَفْرِيقِ أَجْزَائِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَقَالَ : (مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ) ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى إيمَانِهِ وَعِلْمِهِ بِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَقْصِدِهِ وَمُعْتَقَدِهِ فَكَيْفَ يظنّ مَعَ هَذَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إعَادَتِهِ ؟!) .المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (١/٣٣-٣٢) .

.

قال أبوزرعة العراقي (٨٢٦-٧٦٢هـ) : (الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ (فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ) ظَاهِرُهُ نَفْيُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إحْيَائِهِ وَإِعَادَتِهِ ، وَفِي الْقَوْلِ بِهِ إشْكَالٌ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ ، وَالشَّاكُّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَافِرٌ ، مَعَ كَوْنِ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى إسْلَامِهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : إخْبَارُهُ بِأَنَّهُ إنَّمَا فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْكَافِرُ لَا يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى ، وَالثَّانِي : إخْبَارُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَهُ وَالْكَافِرُ لَا يُغْفَرُ لَهُ ، مَعَ مَا انْضَمَّ إلَى ذَلِكَ مِنْ الرِّوَايَةِ الَّتِي فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ الصَّرِيحَةِ فِي أَنَّهُ كَانَ مُوَحِّدًا ، فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهِ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : لَا يَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَيَكُونُ لَهُ تَأْوِيلَانِ :

أَحَدُهُمَا أَنَّ مَعْنَاهُ (لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ الْعَذَابَ) أَيْ قَضَاهُ ، يُقَالُ مِنْهُ : (قَدَرَ) بِالتَّخْفِيفِ وَ (قَدَّرَ) بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، وَالثَّانِي : أَنَّ قَدَرَ بِمَعْنَى ضَيَّقَ فَقَوْلُهُ : (لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ) أَيْ لَئِنْ ضَيَّقَ ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ (الفجر: ١٦) ، وَهُوَ أَحَدُ الْأَقْوَالِ فِي قَوْله تَعَالَى : فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧)) .طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٢٦٧/٣) .

.

قال الشيخ أحمد طارق في الانذار : (بيد أنني أقطع بأن لفظ القدرة هنا لا يكون إلا بمعنى التضييق أو القضاء ، وذلك لقيام القرينة على بطلان معنى الاقتدار والقهر هنا ، وبيان ذلك : أن الذي ندين الله عز وجل به ونشهده عليه أن من جهل قدرة الله تعالى أو شك فيها أو تصور أن الله تعالى سبحانه يعجز عن جمع رفاته بعد موته ، فلا شك لدينا في أنه يعبد إلهاً آخر غير الذي خلقه من قبل ولم يك شيئًا مذكوراً ، وأنه لا يؤمن بالله العظيم جملة ومن حيث الأصل .

أقول : إن هذا الكافر الخاسر الذي يظن مثل هذا الظن ويشك مثل هذا الشك ، نحن لا نشك أنه يعبد إلهاً آخر غير الذي خلق السماوات السبع والأراضين وسخر الشمس والقمر والنجوم والكواكب والريح وينزل الغيث ويصرفه كيف يشاء ، وخلق الإنسان من نطفة من ماء مهين ، وموجد الخلق ولم يكن مثله شيئاً مذكوراً ، والذي يبعث الخلق يوم الفصل من لدن آدم إلى قيام الساعة بنداء واحد وصيحة واحدة ، فيخرجون من الأجداث بعد أن كانوا رماداً و رفاتاً ضالة في الأرض ، أليست هذه كلها لازمات بديهية للعلم بقدرة الله تعالى ؟ فإن كان ثم من يشك في قدرة الله تعالى وما يؤول إليه هذا الفهم والتصور ، فنبؤوني - يرحمكم الله - أي إله هذا العاجز الذي يعبده ؟؟ وهل هناك كفر وشرك بالله أفحش من هذا ؟؟؟) إلى أن قال : (ورحم الله ابن الجوزي حين قال : (من جحد صفة القدرة كفر اتفاقاً) ، أقول : هذا هو الحق ، ولا يصح غير ذلك مطلقاً) .الإنذار بأن نقض أصل التوحيد بالجهل ليس من الأعذار ، الشبهة الثانية .

..

قال الزرقاني (١١٢٢-١٠٥٥هـ) : (« فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ » بخفة الدال وشدها من القدر وهو القضاء لا من القدرة والاستطاعة كقوله : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) ، أو بمعنى ضيق ، كقوله : وَمَنْ قُدِرَعَلَيْهِ رِزْقُهُ (الطلاق: ٧)) . شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، ط. دار المعرفة – بيروت (٨٦/٢) ، ط. مصطفى البابي الحلبي (٢٩٧/٢) بتحقيق إبراهيم عطوة عوض .

..

وقد ذهب إلى هذا الرأي الشوكاني (١٢٥٠-١١٧٣هـ) حيث ذكر اختلاف العلماء في تأويل قوله تعالى : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) ، وقال أن من فسر هذه الآية على معنى الشك في قدرة الله فإن تفسيره مردود ، ومن ثم ذكر أن (قَدَرَ) في الآية إما من التقدير أو التضييق ومن ثم قال : (وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لأهله أن يحرقوه إذا مات ثم قال : (فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ) الحديث ، كما اختلفوا في تأويل هذه الآية والكلام في هذا يطول وقد ذكرنا ها هنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره). تفسير الشوكاني (٤٠٧/٣) .

قلت بحول الله تعالى : قول الشوكاني : (وقد ذكرنا هاهنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره) يدل على أنه يرى أن الشك في قدرة الله كفر وتأويل الحديث على الشك في القدرة مردود ، وأن (قَدَرَ) في الحديث إنما هو من التضييق أو التقدير لا غير .

وقد نقل هذا المذهب في التأويل المفسر **أبو عبد الله ابن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ)** في معرض شرحه لقوله تعالى : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) فرد أن يكون (قَدَرَ) في الحديث من القدرة لأنه كفر ، وذكر من قال من العلماء أن (قَدَرَ) في الحديث بمعنى التقدير ومن ذكر من العلماء أنه من التضييق ومن ثم قال : (وهذان التأويلان تأولهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات فحرقوه (فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ) الحديث ، فعلى التأويل الأول يكون تقديره : (والله لئن ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي وجزائي على ذنوبي ليكونن ذلك) ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه ، وعلى التأويل الثاني : أي (لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على جرمه ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذبه أحدا من العالمين غيري)وحديثه خرجه الأئمة في الموطأ وغيره)تفسير القرطبي (٢٧٢/١٤) .

قال الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي (ت: بعد ١٣٤٨هـ) : (« فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ » بخفة الدال وشدها من القدر وهو القضاء لا من القدرة والاستطاعة) . أوجز المسالك إلى موطأ مالك لمحمد زكريا الكاندهلوي (٣٠١/٤)

..

قال محمد فؤاد عبد الباقي (١٣٨٨-١٢٩٩هـ) : (« لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ » من القضاء ، لا من القدرة والاستطاعة ، كقوله : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء: ٨٧) ، أو بمعنى ضيّق ، كقوله تعالى : وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ (الطلاق: ٧)) . الموطأ بتحقيق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي (٢٤٠/١) .

..

وقال الشيخ أحمد طارق في الإنذار (أما اعتراضهم بإنكار توافق معنى القضاء والتضييق بنية أن يحرقوا جلده ويذروا بعضه في البر وبعضه في البحر ، فهذا اعتراض غير فقيه ولا بصير ، ولو نصحوا للعلم والفقه لعلموا أن في الشرائع التي كانت هناك صور مختلفة للتكفير عن السيئات والذنوب والتوبة إلى الله ، قال تعالى عن بني إسرائيل : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة: ٥٤)
روى النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الله تبارك وتعالى : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والد وولد ، فيقتله بالسيف ، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن ... انظر (ابن كثير: ج١ ، ص٩٢) .تفسير ابن كثير (٥٩٢/٥) .

وقال تعالى : **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (النساء: ٦٦) .**

روى ابن أبي حاتم بسنده إلى شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ... أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وقال : (لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل) . تفسير ابن أبي حاتم (٩٩٥/٣) .
فظاهر الفهم الصحيح للنص أن هذا الرجل فعل ذلك ليكفِّر عما قصَّر في جنب الله ، وعمل الصالحات كما ورد في النص (لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ) وفي رواية (لَمْ يَبْتَئِرْ) بمعنى لم يدخر عملاً صالحاً يلقى به الله توبة منه إلى الله ، وإنابة إليه ، فغفر الله له ما قصر من عمل الصالحات) .
قلت بحول الله تعالى : وأما اعتراض البعض على أن (قَدَرَ) بمعنى (ضَيَّقَ) لا أصل له في اللغة ، فإنما هو اعتراض جاهل بكلام العرب ، فإن هذا المعنى مروي عن حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وعن سعيد بن جبير والحسن البصري من التابعين ، وجمال الدين ابن منظور الأنصاري (٧١١-٦٣٠هـ) والفيروز أبادي ، ومرتضى الزبيدي وغيرهم من أئمة اللغة ، واعتمده من العلماء ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) ، أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٤٥٦-٣٨٤هـ) ، والمفسر أبو عبد الله بن فرح القرطبي الأنصاري (ت: ٦٧١هـ) ، وعماد الدين ابن كثير (٧٧٤-٧٠٠هـ) ، والشيخ بدر الدين الكناني الحموي (٦٣٩-٧٣٣هـ) ، وعضد الدين الإيجي (ت: ٧٥٦هـ) .

وكذا أشار إلى هذا المعنى كثير من العلماء منهم المازري (٥٣٦-٤٥٣هـ) ، و أبو عمر ابن عبد البر القرطبي الأندلسي (٤٦٣-٣٦٨هـ) ، والقاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي المالكي (٤٩٤-٤٠٣هـ) ، ومحيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦-٦٣١هـ) ، و شمس الدين الكرماني (٧٨٦-٧١٧هـ) ، وعبد اللطيف الحنفي المشهور بابن الْمَلَك (ت: ٨٠١هـ) ، والقاضي أبو زرعة العراقي (٨٢٦-٧٦٢هـ) ، وبدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ) وغيرهم ، ولا يقول أن (قدر) بمعنى (ضيَّق) لا أصل له في اللغة إلا الجاهل بكلام العرب كما أشار لذلك الإمام اللغوي ابن منظور الأنصاري (٧١١-٦٣٠هـ) ، وبالله تعالى التوفيق .

.

وقال ومن هنا نقطع بفساد احتجاجهم من هذه القولة على دعواهم كلية.لأنها حسب مقتضيات اللغة لفظة مشكلة ، هي مثل لفظ القرء في الآية: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ [البقرة: ٢٢٨]. فلفظ القرء يطلق في لغة العرب على الحيض وعلى الطهر ، وكلاهما على وجه الحقيقة لا المجاز ، ومن هنا انعدم الاحتجاج بأحد المعنيين دون الآخر بمحض هذه الآية ، وإنما لجأ الفقهاء في ضبطها إلى القرائن كما تقرر في موضعه. وفي هذا النص - حديث الذي ذر نفسه- نقول نفس الكلام فلفظ قدر عليه يأتي في لغة العرب على ثلاثة معان كلها حقيقية فيه وهي: القضاء ؛ التضييق ؛ الاقتدار والقهر ، ومن شاء وطلب التفصيل فليراجع الفيروز أبادي في القاموس المحيط وبن منظور في لسان العرب مادة 'قدر' ، وقد ساق بن منظور شواهدها القرآنية بقوله تعالى: وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ [الفجر: ١٦]. لمعنى التضييق ، وقدر الله الخير وقدره بمعنى قضاه. إذا صح ذلك فقد علمنا يقينا بطلان الاحتجاج بهذا الحديث وهذا اللفظ الوارد فيه ، على أنه جاء بمعنى الاقتدار والقهر ، بمعنى أن الرجل شك في قدرة الله تعالى ، وصح أن من زعم ذلك فإنما تحكم بمحض الهوى والتلذذ ، أو قصور عنده في تمحيص الدليل ، ثم نحن نكلفه البينة ولا بينة له هنا ، وهذا بيان واضح بفضل الله لا لبس فيه ولا إشكال ، ففسد دليلهم بالمرة. بيد أنني أقطع بأن لفظ القدرة هنا لا يكون إلا بمعنى التضيبق أو القضاء ، ولذلك لقيام القرينة على بطلان معنى الاقتدار والقهر هنا ، وبيان ذلك: أن الذي ندين الله به ونشهده عليه أن من جهل قدرة الله تعالى أو شك فيها أو تصور أن الله تعالى سبحانه يعجز عن جمع رفاته بعد موته ، فلا شك لدينا في أنه يعبد إلها آخر غير الذي خلقه من قبل ولم يكن شيء مذكورا ، وأنه لا يؤمن بالله العظيم جملة ومن حيث الأصل.

....

المذهب الثاني :

أن هذا من باب مزج الشك باليقين:

ذهب من قال بهذا القول من أهل العلم إلى أن الرجل لم يشك في قدرة الله تعالي ؛ وإنما استعمل أسلوبا من الأساليب السائغة في لغة العرب ؛ وهو مزج الشك باليقين ، بمعنى إيهام السامع الشك للوصول إلى الحقيقة ، مع كونه موقنا في الحقيقة وليس شاكا .

ونقل مثل هذا القاضي عياض .

(وَقَالَتْ طَائِفَة : هَذَا مِنْ مَجَاز كَلَام الْعَرَب ، وَبَدِيع اِسْتِعْمَالهَا ، يُسَمُّونَهُ مَزْج الشَّكّ بِالْيَقِينِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لِعَلَى هُدًى } فَصُورَته صُورَة شَكّ وَالْمُرَاد بِهِ الْيَقِين).

قال النووي .

(وَقَالَتْ طَائِفَة : هَذَا مِنْ مَجَاز كَلَام الْعَرَب ، وَبَدِيع اِسْتِعْمَالهَا ، يُسَمُّونَهُ مَزْج الشَّكّ بِالْيَقِينِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : **{ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لِعَلَى هُدًى }** فَصُورَته صُورَة شَكّ وَالْمُرَاد بِهِ الْيَقِين) [شرح النووي على مسلم (٩ / ١٢٩)

وحكا هذا المذهب أبو العباس القرطبي حيث قال : (وثانيها : أن هذا جار على نحو ما قد جرى في كلام العرب البليغ مما يسميه أهل النقد : تَجَاهُلِ العَارِف ، وسماه ابن المعتز : مزج الشك باليقين ، هو نحو قوله تعالى : لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (طه: ٤٤) ، وقوله : وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (سبأ: ٢٤) ، وكقول الشاعر :أَيَا ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ بين جَلاَجِلٍ وَبَيْنَ النَّقَا أأنتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ
وقد علم أنها هي ، ومثله كثير)المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧٧/٧) .

وحكاه أيضاً القاضي عياض الأندلسي (٥٤٤-٤٧٦هـ) حيث قال : (وقيل : بل هذا نوع من مجاز كلام العرب وبديع بلاغتها ، سمي عند أهل النقد بتجاهل العارف ، وسماه ابن المعتز في (كتاب البديع) : مزج الشك باليقين ، كقوله تعالى : لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (طه: ٤٤) ، وقوله : وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (سبأ: ٢٤) ، وقول الشاعر :أأنتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ / فصورته صورة الشك ، والمراد التحقيق) .إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٢٥٥/٨) .

وحكاه أيضاً القاضي أبي زرعة العراقي (٨٢٦-٧٦٢هـ) حيث قال : (وَقَالَ آخَرُونَ اللَّفْظُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَذَكَرُوا لَهُ تَأْوِيلَاتٍ : .. (الثَّانِي) أَنَّ هَذَا مِنْ مَجَازِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَبَدِيعِ اسْتِعْمَالِهَا يُسَمُّونَهُ مَزْجُ الشَّكِّ بِالْيَقِينِ وَسَمَّاهُ بَعْضُهُمْ تَجَاهُلَ الْعَارِفِ وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (سبأ: ٢٤) فَصُورَتُهُ صُورَةُ شَكٍّ وَالْمُرَادُ بِهِ الْيَقِينُ)طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٢٦٨/٣-٢٦٧) .

المذهب الثالث :

أن الرجل كان في زمن فترة:

ذهب من قال بهذا القول من أهل العلم إلى أن الرجل كان في زمن فترة يكتفي فيه بمجرد التوحيد.ولقد ذكرنا الأدلة على أن هذا رجل موحد ، ورواية الإمام أحمد الصريحة والتي ذكر فيها أن الرجل كان موحداً تكفي في الفصل في أمره ، والظاهر أن هذه الرواية لم تصل أصحاب هذا المذهب ، أو وصلتهم ولم يصححوها ، والأغلب أنها لم تصلهم أو لم يقفوا عليها ، لذا فلم يروا أنفسهم مضطرين إلى تأويل الكلام المشكل وحمله على وجه لا يناقض الشك في قدرة الله وفي علمه سبحانه ، فحكموا على هذا الرجل بأنه رجل كافر . لكن واجههم إشكال وهو : كيف أن هذا الكافر دخل الجنة . فأجابوا عن ذلك بإجابتين :

الإجابة الأولى : أن هذا الرجل من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة .

اعلم بداية أنه قد اتفق العلماء أن أصحاب الفترات الذين لم تبلغهم الرسالة ولم يحققوا التوحيد أنهم مشركون ولا يمكن أن يكونوا مسلمين وإن كانوا جهالاً ، لكن اختلف أهل العلم في حكمهم في الآخرة ، هل هم معذبين على شركهم أم لا ، على قولين للعلماء .

القول الأول : أنهم يمتحنون يوم القيامة واستدلوا عليه بحديث ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، واستدلوا أيضاً بقوله تعالى " وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (الإسراء: ١٥)

القول الثاني : أنهم معذبين مطلقاً ، وضعفوا الحديث السابق ، وتأولوا قوله تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (الإسراء: ١٥) على العذاب في الدنيا . وليس هذا موضع تحرير هذا النزاع ، إلا أن قياس هذا الرجل في الحديث على أهل الفترة مما يحتاج إلى دليل ، فإنه لم يرد في الخبر أنه امتحن يوم القيامة . فإن هذا التأويل من أبعد التأويلات ، لكن لجأ إليها من لجأ عندما لم يجد مخرجاً في تأويل قول الرجل على غير الشك في قدرة الله عز وجل ، وأظنه لم ينظر في علل هذا التأويل الذي ذهب إليه . وإليك أقوال العلماء الذين ذهبوا إلى هذا التأويل أو نقلوه عن غيرهم

.قال القاضي عياض ـ(وقيل كان هذا في زمن الفترة وحيث ينفع مجرد التوحيد) [الشفا بتعريف حقوق المصطفي (٢ / ٢٩٣)].

.قال النووي ـ (وَقَالَتْ طَائِفَة : كَانَ هَذَا الرَّجُل فِي زَمَن فَتْرَة حِين يَنْفَع مُجَرَّد التَّوْحِيد [شرح النووي على مسلم (٩ / ١٢٤)].

.وقال ابن حجر(أنه كان مثبتا للصانع وكان في زمن الفترة فلم تبلغه شرائط الإيمان) [فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٦ / ٥٢٣)].

قال السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) (قَالَ اِبْن الْجَوْزِيّ فِي جَامِع الْمَسَانِيد : فَإِنْ قِيلَ هَذَا الَّذِي مَا عَمِلَ خَيْرًا قَطّ كَافِر فَكَيْف يُغْفَر لَهُ : فَالْجَوَاب : قَالَ اِبْن عَقِيل : هَذَا رَجُل لَمْ تَبْلُغهُ الدَّعْوَة)سنن النسائي بشرح السيوطي

قال السندي (ت. ١١٣٨هـ) في حاشيته على سنن النسائي : (وَأَجَابَ بَعْضٌ بِأَنَّ هَذَا رَجُلٌ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ وَهَذَا بَعِيدٌ وَاَللَّه تَعَالَى أَعْلَمُ) حاشية السندي (٤١٩/٤) .

المذهب الرابع :

وذهب طائفة إلى أنه ربما كان في شرعهم جواز العفو عن الكافر بخلاف شرعنا.

.قال النووي

(وَقَالَتْ طَائِفَة : يَجُوز أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَن شَرْعهمْ فِيهِ جَوَاز الْعَفْو عَنْ الْكَافِر ، بِخِلَافِ شَرْعنَا ، وَذَلِكَ مِنْ مُجَوِّزَات الْعُقُول عِنْد أَهْل السُّنَّة ، وَإِنَّمَا مَنَعْنَاهُ فِي شَرْعنَا بِالشَّرْعِ ، وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : { إِنَّ اللَّه لَا يَغْفِر أَنْ يُشْرَك بِهِ } وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الْأَدِلَّة ، وَاَللَّه أَعْلَم) [شرح النووي على مسلم (٩ / ١٢٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٧٢/١٧) .

-**وقال به ايضآ بدر الدين العيني (٨٥٥-٧٦٢هـ)** :في عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ، (٦٢/١٦) و (١٦٢/٢٥) .

-**ونقل أبو الحسن ابن بطال القرطبي (ت: ٤٤٩هـ)** هذا المذهب في شرحه لصحيح البخاري/ شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٩٢/١٠) .

-**وقال القاضي عياض الأندلسي (٥٤٤-٤٧٦هـ)** : (وقيل : قد يحتمل أن زمنهم كان حينئذ وشرعهم فيه جواز عفو الله عن الكافر ، بخلاف شرعنا ؛ إذ ذلك من مجوزات العقول عن أهل الحق ، وإنما منعنا ذلك بالشرع ، وقوله : إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ ... الآية (النساء:٤٨)) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٢٥٦/٨)

- **وقال ابن الجوزي (٥٩٧-٥٠٨هـ)** : (والثاني : أنه جهل صفة من صفات الله عز وجل فكفر بذلك ، إلا أن الكفر قد كان يغفر في ذلك الزمان إلى أن نزل قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (النساء: ٤٨)) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١٥٧/٣) .

-**ونقل هذا المذهب شمس الدين الكرماني (٧٨٦-٧١٧هـ)** قائلاً : (أو كان في شرعهم جواز العفو عن الكافر) صحيح البخاري بشرح الكرماني ، (١٠٨/١٤) و (١٩٣/٢٥) .

-**وقال القاضي أبي زرعة العراقي (٨٢٦-٧٦٢هـ)** : (وَقَالَ آخَرُونَ اللَّفْظُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَذَكَرُوا لَهُ تَأْوِيلَاتٍ : .... (الْخَامِسُ) أَنَّهُ يَجُوزُ أَنَّهُ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِشَرِيعَةٍ فِيهَا جَوَازُ الْعَفْوِ عَنْ الْكَافِرِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي شَرْعِنَا فَإِنَّهُ مِنْ مُجَوِّزَاتِ الْعُقُولِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَإِنَّمَا مَنَعْنَاهُ فِي شَرْعِنَا بِالشَّرْعِ وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (النساء: ٤٨)) طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٢٦٨/٣-٢٦٧) .

وقد استبعد ابن حجر .هذا القول حيث يقول :
(وأبعد الأقوال قول من قال إنه كان في شرعهم جواز المغفرة للكافر) [فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٦ / ٥٢٣)].

-وقد نقل أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) هذا القول وردَّ عليه حيث قال : (وقالت طائفة ثالثة : يجوز أن تكون شريعة أولئك القوم أن الكافر يغفر له ، فإن هذا جائز عقلاً ، فلا يبعد أن يكون ذلك شرعاً مع القطع بأن ذلك لا يصح في شرعنا ، ومن شك فيه فهو كافر .

وكذلك رد على هذا المذهب في التأويل الشيخ عبد الله بن علي النجدي القصيمي (١٣٥٣هـ) حيث قال (وقالت طائفة : كان جائزاً في الشرائع الأول أن يغفر لمن كفر . وهذا الرجل الذي شك في قدرة الله كان من بني إسرائيل . وهذا قول لا يلتفت إليه) .مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٢ .

واعلم أن من ذهب هذا التأويل يدل بجلاء على عقيدته أن الشاك في قدرة الله أو في علمه كافر ، وإن كان قد أخطأ فيما ذهب إليه ، ولم يصب في اجتهاده ، لأن عمومات القرآن الكريم وأحاديث الشفاعة ترده ، ولعل هؤلاء العلماء الذين نقلوه لم يتفطنوا لهذا الأمر ، ولما تفطن أبو العباس القرطبي لهذا الأمر رد عليه ووضح مناقضة هذا المذهب لحديث الشفاعة مناقضة صريحة .

واعلم أن من ذهب هذا المذهب في التأويل احتج بأننا عرفنا دخول الكافر في النار بقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (النساء: ٤٨) ، وقالوا يحتمل أنه لم يرد في شرعهم هذه الآية ، ولكن هذا الاحتمال باطل من وجهين :

الأول : عمومات القرآن الكريم ، وأحاديث الشفاعة .

الثاني : قوله تعالى : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (الزمر: ٦٥) .

ولعل من ذهب هذا المذهب في التأويل أو سوَّغه لم يتفطن لهذه الأدلة ، والله تعالى أعلم وأحكم .

....

المذهب الخامس :

أن الرجل لم يفعل كفرا أصلا وأن ما قاله ليس شكا في القدرة وإنما في إجرائها.

.قال الكشميري:

(ومن ألفاظه: «لَئِنْ قَدَرَ الله عليّ...» إلخ ، قيل: إن هذا يُؤْذِنُ بتردُّده في قدرته تعالى ، وهو كفرٌ. قلتُ: لفظه هذا يحتمل معنيين: الأول: ما قلتَ ، وهو كفرٌ ، كما قلتَ. والثاني: أنه لا شكَّ له في نفس القدرة ، ولكنه في إجرائها ، أي إنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى ، وإن كان قادراً ، لكنه إن تَرَكَني على هذا الحال ولم يَجْمَعْني ، فقد تمَّت حيلتي ، وأنقذتُ نفسي ، وإن لم يَتْرُكْني حتَّى جَمَعَني ونفذت قدرته ، فإنه يعذِّبني... إلخ. وهذا معنى لا غائلة فيه. وليس فيه ما يُوجِبُ الكفرَ أصلاً) [فيض الباري شرح صحيح البخاري (٦ / ٦٢)].

.

المذهب السادس :

أن الرجل قال ذلك في حالة ذهول، ودهشة، وشدة جزع؛ حيث ذهب تيقظه وتدبر ما يقوله، فكان في معني الغافل والناسي؛ الذي لا يعقل ما يقول، ومن كان في هذه الحالة، ترتفع عنه المؤاخذة.

.قال القاضي عياض:

(وقيل: إنما قال ما قاله وهو غير عاقل لكلامه ولا ضابط للفظه مما استولى عليه من الجزع والخشية التى أذهبت لبه فلم يؤاخذ به) [الشفا بتعريف حقوق المصطفي (٢ / ٢٩٣)].

.قال النووي:

(وَقَالَتْ طَائِفَة : اللَّفْظ عَلَى ظَاهِره ، وَلَكِنْ قَالَهُ هَذَا الرَّجُل وَهُوَ غَيْر ضَابِط لِكَلَامِهِ ، وَلَا قَاصِد لِحَقِيقَةِ مَعْنَاهُ ، وَمُعْتَقِد لَهَا ، بَلْ قَالَهُ فِي حَالَة غَلَبَ عَلَيْهِ فِيهَا الدَّهْش وَالْخَوْف وَشِدَّة الْجَزَع ، بِحَيْثُ ذَهَبَ تَيَقُّظه وَتَدَبُّر مَا يَقُولهُ ، فَصَارَ فِي مَعْنَى الْغَافِل وَالنَّاسِي ، وَهَذِهِ الْحَالَة لَا يُؤَاخَذ فِيهَا ، وَهُوَ نَحْو قَوْل الْقَائِل الْآخَر الَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ الْفَرَح حِين وَجَدَ رَاحِلَته : أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبّك ، فَلَمْ يَكْفُر بِذَلِكَ الدَّهْش وَالْغَلَبَة وَالسَّهْو) [شرح النووي على مسلم (٩ / ١٢٤)] وقد نقل هذا التوجه عن النووي شهاب الدين القسطلاني ، والشيخ زكريا الانصاري ، وبدر الدين العيني ، وشمس الدين الكرماني .

قال ابن بطال:

(وقال آخرون : إنما غفر له ، وإن كان كفرًا ممن قصد قوله وهو يعقل ما يقول ؛ لأنه قاله وهو لا يعقل ما يقول . وغير جائز وصف من نطق بكلمة كفر وهو لا يعلمها كفرًا بالكفر ، وهذا قاله وقد غلب على فهمه من الجزع الذى كان لحقه لخوفه من عذاب الله تعالى وهذا نظير الخبر الذى روى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في الذى يدخل الجنة آخر من يدخلها فيقال له : (إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها) فيقول للفرح الذى يدخله : (يا رب أنت عبدى وأنا ربك مرتين) قالوا فهذا القول لو قاله على فهم منه بما يقول كان كفرًا ، وإنما لم يكن منه كفرًا لأنه قاله وقد استخفه الفرح مريدًا به أن يقول : أنت ربى وأنا عبدك ، فلم يكن مأخوذًا بما قال من ذلك . ويشهد لصحة هذا المعنى قوله تعالى (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ)[شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠ / ١٩٣ . ١٩٤)

.قال ابن حجر

(وأظهر الأقوال أنه قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه حتى ذهب بعقله لما يقول ولم يقله قاصدا لحقيقة معناه بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه) [فتح الباري (٦ / ٥٢٣)].

وقد ذكر مثل ذلك عن شيخه ابن الملقن حيث قال :

(ومن اللطائف أن من جملة الأجوبة عن ذلك ما ذكره شيخنا بن الملقن في شرحه أن الرجل قال ذلك لما غلبه من الخوف وغطى على فهمه من الجزع فيعذر في ذلك) [فتح الباري (١١ / ٣١٤)].

وهناك نقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية ذهب فيه إلى ما صدر من هذا الرجل هو من قبيل شدة الخوف والخطأ. فقال رحمه الله :

(فهذا الرجل لما كان مؤمنا بالله في الجملة ، ومؤمنا باليوم الآخر في الجملة ، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت فهذا ، عمل صالح وهو خوفه من الله أن يعاقبه على تفريطه ، غفر له بما كان من الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ وإنما اخطأ من شدة خوفه كما أن الذي وجد راحلته بعد إياس منها أخطأ من شدة فرحه).مجموع الرسائل والمسائل(٣ / ٣٤٦)

وذهب إلى هذا الرأي الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب حيث قال : (فهذا الرجل لما كان مؤمناً بالله في الجملة وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت فهذا عمل صالح ، فغفر الله له بما معه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإنما أخطأ من شدة خوفه وقد وقع الخطأ في كثير من الخلق من هذه الأمة واتفقوا على عدم تكفير من أخطأ)مجموع الرسائل والمسائل (٣/٣٤٦) .

وحكا هذا المذهب جلال الدين السيوطي (٩١١-٨٤٩هـ) حيث قال : (وقيل قاله في حالة غلب عليه فيها الدهش والخوف وشدة الوجع فلم يضبط ما يقوله فصار في معنى الغافل وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها) .الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج للسيوطي (٦/٩٩) .

وحكا هذا المذهب نور الدين السندي (ت. ١١٣٨هـ) حيث قال : (كأنه فعله كما يفعل العاجز ويتمسك بكل ما يرى من غير تفكر في أنه ينفعه أو لا ، لأنه لغاية الحيرة يطير عقله فلا يدري ماذا يفعل ، لا أنه فعله إنكاراً لقدرة الله على جمعه وتعجيز إلهه ، والله تعالى أعلم) صحيح البخاري وبهامشه حاشية السندي بتمامها وتقريرات من شرحي القسطلاني وشيخ الإسلام (١٥٨/٢) .

وحكاه في موضع آخر حيث قال : (وَيَحْتَمِل أَنَّ شِدَّة الْخَوْف طَيَّرَتْ عَقْلَهُ فَمَا اِلْتَفَتَ إِلَى مَا يَقُول وَمَا يَفْعَل وَأَنَّهُ هَلْ يَنْفَعهُ أَمْ لاَ كَمَا هُوَ الْمُشَاهَد فِي الْوَاقِع فِي مَهْلَكَةٍ فَإِنَّهُ قَدْ يَتَمَسَّكُ بِأَدْنَى شَيْءٍ لاحْتِمَالِ أَنَّهُ لَعَلَّهُ يَنْفَعُه فَهُوَ فِيمَا قَالَ وَفَعَلَ فِي حُكْمِ الْمَجْنُونِ) .سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي (٤١٨/٤) .

وقد رجح هذا المذهب الأخير واختاره كلا من " ابن حجر " وشيخه " بن الملقن " وذكره " القاضي عياض " عن طائفة من العلماء.

وقد رجحوا هذا القول لأمور منها :

.هذا المذهب يبقي اللفظ على ظاهره " فإن قدر على ربي " ويلحق فعل الرجل بعارض آخر وهو الخطأ من شدة الجزع والخوف .

.أن ترجيح هذا المذهب لا يعني رد غيره من الأوجه الأخرى المعتبرة عند أهل العلم ؛ لأنها أوجه محتملة عليها طوائف من أهل العلم .

ووقائع الأحوال إذا تطرق إليها الاحتمال ضعف الاستدلال بها.

وفي هذا يقول أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمري (وقائع الأحوال إذا تطرق عليها الاحتمال سلبها الاستدلال لما يبقي فيها من الإجمال) [نيل الأوطار (٢ / ٤٤)].

المذهب السابع

من قال بان الرجل ظن أنه إذا فعل بنفسه ما فعل من تلك الحيلة .لعل الله سبحانه وتعالى لا يبعثه ولا يعيده مع الجزم بقدرة الله عز وجل على ذلك .

قال بدر الدين العيني (٨٥٥-٧٦٢هـ) : (أو معناه لئن قدر الله علي مجتمعاً صحيح الأعضاء ليعذبني ، وحسب أنه إذا قدر عليه محترقاً مفترقاً لا يعذبه) .عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (١٦٢/٢٥-١٦٣) .

.

قال شمس الدين الكرماني (٧٨٦-٧١٧هـ) : (أو معناه إن قدر الله علي مجتمعاً صحيح الأعضاء ليعذبني ، وحسب أنه إذا قدر عليه محترقاً مفترقاً لا يعذبه) صحيح البخاري بشرح الكرماني (١٩٣/٢٥) .

....

المذهب الثامن

أن (إنْ) في قول الرجل (لئن قدر الله علي) ليست شرطية بل بمعنى (إذا) الزمانية

قال الإمام النحوي اللغوي أبي محمد ابن السيد البطليوسي (٤٤٤-٥٢١هـ) : (وقد يجوز أن يكون قوله (فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ) من القدرة على الشيء ، فإن قيل : كيف يصح هذا ودخول الشرط عليه قد جعله من حيز الممكن الذي يجوز أن يكون ويجوز ألا يكون ، وهذه خاصة الشرط ألا ترى أنك إذا قلت : إن جاءني زيد أكرمته ، فممكن أن يقع ذلك وممكن ألا يقع ، وهذا شك محض في قدرة الله تعالى .

فالجواب : أن العرب قد تستعمل (إن) التي للشرط بمعنى (إذا) ، كما تستعمل (إذا) بمعنى (إن) و(إذا) تقع على الشيء الذي لا يشك في كونه ، كقولك إذا كان الليل فأتني ، وكون الليل لا بد منه ، وكقوله تعالى : إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (الإنفطار: ١) ، فمعناه على هذا : (فوالله إذا قدر الله علي ليعذبني عذابا شديداً) . وإنما جاز وقوع (إن) التي للشرط موقع (إذا) الزمانية لأن كل واحد منهما يحتاج إلى جواب ، والشيئان إذا تضارعا جاز أن يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ، فمما وقعت فيه (إن) موقع (إذا) قوله تعالى : لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ (الفتح: ٢٧)، وقول النبي عليه السلام حين وقف على القبور : « إِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ » (الحديث) يريد (إذا شاء الله) ، ومنه قول الشاعر :

فَإِلاَّ يَكُنْ جِسْمِي طَوِيلاً فَإِنَّنِي لَهُ بِالْفِعَالِ الصَّالِحَاتِ وَصُولُ

معناه فإذا لم يكن جسمي طويلاً فإنني أطوّله بالأفعال الحسان ، ولا يصح الشرط ههنا لأن قصر جسمه شيء قد كان وقع والشرط ههنا محال . ومثله قول الآخر :

فَإِنْ أَكُ قَدْ فَارَقْتُ نَجْداً وَأَهْلَهُ فَمَا عَهْدُ نَجْدٍ عِنْدَنَا بِذَمِيمُ

وأما وقوع (إذا) بمعنى (إن) فكقول أوس بن حجر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَا أَصَبْتَ حَلِيماً أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلُ

والإعراض عن الخنا ممكن أن يكون ، وممكن ألا يكون فليس هذا من مواضع (إذا) ، وإنما هو من مواضع (إن)) الإنصاف للبطليوسي ، ص ١٠٢-١٠٤ .

...

وقال عبد اللطيف الحنفي المشهور بابن الْمَلَك (ت: ٨٠١هـ) : (وأقول : الأقرب أن قدر من القدرة وأنه لم يرد به الشك بل أراد تحقيق كونه معذباً كما يقال إن كان لي صديق فهو فلان لم يرد به التردد في ثبوت الصديق له بل أراد تحقيق كمال صداقة فلان) مبارق الأزهار شرح مشارق الأنوار (٣٩/٣) .

....

تنبيهات تتعلق بهذا الحديث:

١- قيام الرجل بالتوحيد:

هذا الحديث خارج عن محل النزاع فهو ليس في قضية التوحيد التي هي أصل الأصول بل كان الرجل موحدا مؤمنا مجانبا للشرك تاركا له.

ففي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة:

(عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : كان رجل ممن كان قبلكم لم يعمل خيرا قط إلا التوحيد فلما احتضر قال لأهله انظروا إذا أنا مت ان يحرقوه حتى يدعوه حمما ثم اطحنوه ثم أذروه في يوم ريح فلما مات فعلوا ذلك به فإذا هو في قبضة الله فقال الله عز و جل يا بن آدم ما حملك على ما فعلت قال أي رب من مخافتك قال فغفر له بها ولم يعمل خيرا قط إلا التوحيد)[المسند (٨٠٤٠)]

.

ومن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

(أن رجلا لم يعمل من الخير شيئا قط إلا التوحيد فلما حضرته الوفاة قال لأهله إذا أنا مت فخذوني واحرقوني حتى تدعوني حممة ثم اطحنوني ثم اذروني في البحر في يوم راح قال ففعلوا به ذلك قال فإذا هو في قبضة الله قال فقال الله عز و جل له ما حملك على ما صنعت قال مخافتك قال فغفر الله له)

[المسند (٣٧٨٥)]

.

.قال ابن عبد البر:

(روي من حديث أبي رافع عن أبي هريرة في هذا الحديث أنه قال "قال رجل لم يعمل خيرا قط إلا التوحيد" وهذه اللفظة إن صحت رفعت الإشكال في إيمان هذا الرجل وإن لم تصح من جهة النقل فهي صحيحة من جهة المعنى والأصول كلها تعضدها والنظر يوجبها لأنه محال غير جائز أن يغفر للذين يموتون وهم كفار لأن الله عز وجل قد أخبر أنه لا يغفر أن يشرك به لمن مات كافرا وهذا ما لا مدفع له ولا خلاف فيه بين أهل القبلة) التمهيد ج ١٨/ ٣٧.

.

قال عبيد الله بن محمد عبد السلام المباركفوري:

(وقد روى الحديث بلفظ : قال رجل لم يعمل خيرًا قط إلا التوحيد ، وهذه اللفظة ترفع الإشكال في إيمانه والأصول تعضدها { إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ } (النساء : ٤٨)

الخشية من لوازم الإيمان ولما كان فعله هذا من أجل خشية الله تعالى وخوفه فلا بد من القول بإيمانه ، وعلى هذا فالحديث ظاهر بل هو كالصريح في استثناء التوحيد كما تقدم فلا إشكال فيه .) [مرعاة المفاتيح (١٨٠/٨)]

.

.**قال صاحب الأحاديث القدسية /نقلاً عن القسطلاني** في شرح الصحيح لم (يقدم عند الله خيراً) (ليس: المراد نفي كل خير على العموم ، بل نفي ما عدا: التوحيد ولذلك غفر له ، وإلا فلو كان التوحيد منتفياً عنه ، لتحتم عقابه سمعاً ولم يغفر له... وليس ذلك شكاً منه في قدرة الله على إحيائه ولا إنكاراً للبعث وإلا لم يكن موقناً ، وقد أظهر إيمانه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله –تعالى ا.هـ)

.

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: (وحديث الرجل الذي أمر أهله بتحريقه كان موحداً ليس من أهل الشرك ، فقد ثبت من طريق أبي كامل ، عن حماد عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة ((لم يعمل خيراً قط إلاَّ التوحيد)) ، فبطل الاحتجاج به في مسألة النزاع).اهـ [منهاج التأسيس والتقديس ص ٢١٨]

٢-**قول الرجل في رواية مسلم :** « وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي » مما يدل أنه لم يكن شاكاً في قدرة الله تعالى .

٣-**أن هذا الرجل دخل الجنة ولو كان كافراً لما دخلها لأن الله عز وجل قال :** إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء: ٤٨) .

٤- **وأيضاً من ناحية منطقية فإن هذا الرجل من بني إسرائيل كان نباشاً** ، وكان مسرفاً على نفسه ، ويسيء الظن بما فعله من معاصي ومن نبش للقبور ، أي أنه كان يعرف أن نبش القبور من المحرمات ، فكيف يعرف هذا ويجهل كمال قدرة الله تعالى وكمال علمه أو البعث ؟! أي كيف يعرف حرمة نبش القبور وهو من الفرعيات ويجهل أساس التوحيد الذي هو أصل الأصول أو أخص ما يقترن بالتوحيد من البعث ؟!

....

ومن التنبيهات ايضاً

-هذا الرجل لا يمكن أن يكون شاكاً في علم الله عز وجل بمكان تواجد ذراته المتفرقة في البر والبحر ، ولا يمكن أن يكون شاكاً كذلك في قدرة الله عز وجل على جمع ذراته المتفرقة في البر والبحر ، وإحيائه بعد أن صار رماداً متفرقاً في البر والبحر ، وذلك للأسباب التالية :

الأول : إن هذا رجل موحد كما دلت عليه رواية أحمد في مسنده ، وكما دلت عليه الروايات بمجموعها أنه رجل من أهل الجنة . والإنسان لا يكون موحداً لله بل ولا عارفاً بالله إلا بالإيمان الجازم واليقيني أنه على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم ، وهذا بإجماع المسلمين الموحدين خلا أدعياء التوحيد .

.

الثاني : إن الله عز وجل وبَّخ أشد ما توبيخ من استبعد قدرته على النشأة الثانية في غير ما آية في كتاب الله عز وجل منها قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (يس: ٧٧-٨٣) حيث اكتفى الله عز وجل بقدرته على خلق الإنسان من العدم كدليل على قدرته على خلقه من جديد حتى ولو صار عظاماً بالية متفتتة ، واستدل على قدرته على خلق الإنسان من العظام البالية بإخراج النار من الشجر الأخضر ، وبقدرته على خلق السماوات والأرض .

وقد اعتبر الله عز وجل استبعاد قدرته على إعادة الإنسان بعد أن أصبح تراباً (أي كالعدم) قولاً عجباً ، وتوعد القائلين به ، وذلك في قوله عز وجل : وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (الرعد: ٥)

فلو كان هذا الرجل شاكاً في قدرة الله عز وجل لوبخه الله عز وجل على ذلك .

وكذا فإن الله عز وجل قد اكتفى بدليل الخلق على علم الخالق سبحانه لما خَلَقَهُ ، حيث قال : وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك: ١٣-١٤) ، فلو كان هذا الرجل شاكاً في علم الله عز وجل لوبخه الله عز وجل على شكه في علمه سبحانه . لكن الرجل لم يشك في قدرة الله عز وجل ولا في علمه سبحانه وتعالى طرفة عين ولذلك لم يحتج إلى هذا التوبيخ .

.

الثالث : إنه لم يثبت عن أحد من الصحابة وخاصة رواة الحديث أنهم نفروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند سماعهم للحديث مستوضحين ما اضطربت فيه أقوال المتأخرين ، فإنهم كثيراً ما كانوا يستوضحون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أشكل عليهم ، فلو فهموا من هذا الحديث أن هذا الرجل كان شاكاً في قدرة الله عز وجل أو في علمه سبحانه ومع هذا دخل الجنة لاستشكل عليهم الأمر ، ولسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه . ولم يثبت كذلك لا عن التابعين ولا عن تابعيهم أي استشكال لهذا الحديث ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سلامة فهمهم واتفاقهم على تأويله بعيداً عن المعنى الكفري .

الرابع : إن الرجل صدَّر قوله (لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ) بتعظيم الله عز وجل ، كما اتفقت عليه كل روايات الحديث ، حيث قال « فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ » وأنت إذا تأملت تصدير كلامه بتعظيم الله عز وجل ألا وهو الحلف باسم الله عز وجل ، لدلَّك ذلك على أن كلام هذا الرجل كلام معظم لله عز وجل ، لا كلام من يظن به سوءًا ونقصاً في صفاته سبحانه .

.

الخامس : إن الرجل أوصى بما أوصى من شدة خشيته لله والخوف من أليم عقابه كما اتفقت عليه كل روايات الحديث ، وهذا دليل على تعظيمه لله وتكبيره في نفسه لا على ظنه بالله ظن السوء كما يدعي أهل السوء من أهل الزيغ والضلال .

السادس : إن هذا الرجل قد ذكر وصيته وعدَّها من أفعال الخير ، وذلك في رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل ، فلو كانت وصيته سببها شكه المزعوم في قدرة الله عز وجل أو في علمه سبحانه لما عدَّ ما فعله من أعمال الخير .

السابع : إن هذا الرجل قال جواباً على سؤال الله عز وجل له عن السبب الباعث له على وصية التحريق : (مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ) ، وإن الله عز وجل لم يكذبه ، مما يدل على أنه إنما أوصى بما أوصى من خشية الله عز وجل وليس شكاً في قدرة الله عز وجل أو في علمه سبحانه ، ويدل قول الرجل (وَأَنْتَ أَعْلَمُ) على أن هذا الرجل يؤمن بأن الله عز وجل يعلم ما يخفيه في صدره ، ويؤمن بأن الله عز وجل يعلم السر الذي غيَّبه في صدره عن السبب الباعث له على وصية التحريق ألا وهي خشية الله عز وجل وخوفه سبحانه وتعالى ، فكيف يقال بعد ذلك أنه طمع أن يخفى على علم الله عز وجل إذا غاب رماده في البر والبحر ؟!! وكيف يقال مع إقراره لله عز وجل بالعلم بأن هذا الرجل يشك في قدرة الله عز وجل على خلقه من جديد بعد أن يصبح رماداً مبثوثاً في البر والبحر ؟!!

الثامن : هذا الرجل تحديداً لا يمكن أن يكون شاكاً في قدرة الله عز وجل على جمع رماده المتفرق في البر والبحر وإحيائه من جديد . لأنه يعلم يقيناً أن المقبور سيكون بعد فترة عدماً لأنه كان نباشاً ينبش القبور فلا بد أنه يعرف أكثر من غيره أن الإنسان بعد فترة يبلى ويتحول إلى تراب ولا يبقى من جسده شيئًا . فلو كان شاكاً في قدرة الله عز وجل لما أمر بحرقه وذري رماده في البر والبحر لأنه كما أنه بذري رماده في البر والبحر يكون كالعدم فإن المقبور أيضاً بعد فترة بتحوله إلى تراب يكون كالعدم فلا فرق . إلا أنه أراد من التحريق وذري الرماد معنى آخر أشرنا إليه في شرح الحديث ، وبالله ملك الملوك جل جلاله توفيقنا .
ولأدعياء التوحيد مذاهب شتى في تأويل هذا الحديث ابتغاء الفتنة والإضلال ، وتحريف التوحيد الذي هو أصل الأصول ، وظناً منهم أنهم يستطيعون أن يطفئوا بذلك نور الله عز وجل ، يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

فلو كان من أصول العلماء إعذار جاهل التوحيد لقالوا: إن هذا الرجل جهل قدرة الله وعذر بجهله، ولما احتاجوا إلى التأويل الذي لا يخفى ذمه عندهم ولا يلجأون إليه إلا في حالة الضرورة.وكماذكرنا أعلاه فإن قيل: هذا الرجل جهل صفة القدرة، فعذر بجهله. قلنا: فما الذي دفع العلماء إذن إلى صرف الحديث عن ظاهره واللجوء إلى تأويله، إذا كان الأمر عندهم بهذه البساطة؟؟؟؟

ألا يكفي أن يقولوا مثلاً: هو جاهل فعذر بجهله؟؟ وما كانت بهم حاجة إلى كل هذه التأويلات؟ إلا أن يكون العلماء قد رأوا أن هذه "قضية عين" لا تقوى على معارضة قواعد كلية ثابتة وأدلة مستفيضة، سبق أن تقررت عندهم في صورة أصل كلي، مما أوجب أن تتنزل هذه القضية على مقتضى هذا الأصل. وخاصة أن الحديث نفسه يحتمل أوجهاً كثيرة غير هذا الوجه الذي يعارض الأصل المقرر؟

ولما كان هذا الأصل راسخاً عندالعلماء ووجدوا في بعض روايات الحديث ألفاظاً مشكلة تدل في ظاهرها أو في أحد معانيها على شك الرجل في قدرة الله وفي علمه ، سارعوا إلى تأويل الحديث تأويلاً يصرفه عن المعنى الذي يصادم هذا الأصل الثابت المتقرر عندهم . ولو كان هذا الأصل غير متقرراً عندهم لما احتاجوا إلى كل تلك التأويلات ، ولقالوا جميعاً إن الرجل شك في قدرة الله وفي علم الله ولم يكفر بذلك ، وكفوا أنفسهم مؤنة التأويل ، لأنهم لا يلجئون إلى التأويل إلا عند الضرورة .

بل قد نقل أبو العباس القرطبي (٦٥٦-٥٧٨هـ) في معرض شرحه لهذا الحديث إجماع المسلمين على كفر من شك في قدرة الله عز وجل أو في علم الله عز وجل حيث قال (ولا يختلف المسلمون في أن من جهل أو شكَّ في كون الباري تعالى عالماً به وقادراً على إعادته كافر) . المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٥٧/٧)

كما قد نقل الإجماع على كفر من شك في قدرة الله عز وجل . أبو الحسن السبتي الأموي في كتابه تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص١١٩) حيث قال : **(وبالإجماع أنه من ظن أن لا يقدر الله عز وجل عليه على وجه العجز عنه أو الفوت من قضائه وقدره فهو كافر) . اهـ**

فالعلماء رغم اختلافهم في شرح هذا الحديث إلا أنهم اتفقوا في معرض شرحهم لهذا الحديث على هذا الأصل الراسخ ، فالإشكال الحاصل عندهم أن هذا رجل دلت الروايات على إيمانه ، حيث أنه من أهل الجنة ، بالإضافة إلى الرواية التي أخرجها الإمام أحمد والصريحة في أن هذا الرجل كان موحداً ، فكيف يكون ظاهر بعض الروايات معناها أنه كان شاكاً في قدرة الله وفي علم الله عز وجل ، فسبَّبَ هذا إشكالاً عندهم لأن من الأصول الراسخة عندهم أن الشاك في قدرة الله أو في علمه لا يكون موحداً وهذا رجل موحد ، ونتج من هذا الإشكال إشكالاً آخر وهو أنه إن كان هذا الرجل فعلاً شك في قدرة الله وفي علمه إذا لا يكون موحداً فكيف ذكر في رواية أحمد أنه موحد وكيف ذكر في جميع الروايات أنه يدخل الجنة وهو غير موحد ؟

فإليك طائفة من أقوال العلماء .

قال ابن الجوزي (٥٩٧-٥٠٨هـ) : (وقد اعتُرِض على هذا الحديث فقيل : هذا رجل كافر ، لقوله : (إِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ) ومن ظن أن الله تعالى لا يقدر عليه فهو كافر ، فكيف يقال : غفر الله له ، وتلقاه برحمته ؟) .كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١٥٦/٣) .

قال بدر الدين العيني (٨٥٥-٧٦٢هـ) : (قيل : كيف غفر لهذا الذي أوصى بهذه الوصية وقد جهل قدرة الله على إحيائه ؟) . وقال في موضع آخر : (قيل : إن كان مؤمناً فلم شك في قدرة الله وإن كان كافراً فكيف غفر له ؟) .

قال شمس الدين الكرماني (٧٨٦-٧١٧هـ) : (فإن قلت : إن كان مؤمناً فلم شك في قدرته تعالى وإن كان كافراً فكيف غفر له) .

قال ابن قتيبة (٢٧٦-٢١٣هـ) : (قالوا: حديث يبطله القرآن ، قالوا: رويتم أن رجلاً قال لبنيه : (إذا أنا مت فأحرقوني ثم اذروني في اليم ، ففعلوا ذلك ، فجمعه الله ثم قال له : ما حملك - أو كلاما هذا معناه - على ما فعلت ؟ قال: مخافتك يا رب ، فغفر الله له) . قالوا: وهذا كافر ، والله لا يغفر للكافر ، وبذلك جاء القرآن) . تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، ص ١١٩
.

قال أبو بكر ابن فورك الإصبهاني (ت: ٤٠٦هـ) : (فأما معنى قوله (لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا) فلا يصلح أن يكون محمولاً على معنى القدرة ، لأن من توهم ذلك لم يكن مؤمناً بالله عز وجل ، ولا عارفاً به). مشكل الحديث لابن فورك ، ص ١٦٤ .
.

قال المازِري (٥٣٦-٤٥٣هـ) في شرحه لصحيح مسلم : (لا يصح حمل هذا الحديث على أنه أراد بقوله (قَدَرَ عَلَيَّ) من القدرة ، لأنه من شك في كون الباري سبحانه قادراً عليه فهو كافر غير عارف به ، وقد ذكر في آخر الحديث أن الله قال له : (مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ أَوْ مَخَافَتُكَ) فغفر له بذلك ، والكافر لا يخشى الله ولا يغفر الله له) .الْمُعْلِمْ بفوائد مسلم للمازِري (٣٣٤/٣) .

قال أبو جعفر الطحاوي (٣٢١-٢٣٩هـ) : (إِنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمُوصِي مِنْ قَوْلِهِ لِبَنِيهِ : (فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ) لَيْسَ عَلَى نَفْيِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فِي حَالٍ مِنْ الأَحْوَالِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَكَانَ كَافِرًا وَلَمَا جَازَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ ، وَلاَ أَنْ يُدْخِلَهُ جَنَّتَهُ ؛ لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) .شرح مشكل الآثار للطحاوي (٢٩/٢) .

قال القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي (٤٩٤-٤٠٣هـ) : (وَلاَ يَصِحُّ أَنْ يُرِيدَ بِأَمْرِهِ أَنْ يُذْرَى نِصْفُهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفُهُ فِي الْبَحْرِ أَنَّهُ رَجَاءَ أَنْ يُعْجِزَ اللَّهَ بِذَلِكَ وَاعْتَقَدَ بِأَنَّ الْبَارِيَ لاَ يَقْدِرُ عَلَى إعَادَتِهِ مَعَ هَذَا الْفِعْلِ ؛ لأَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ كَفَرَ ، وَالْكَافِرُ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : إنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء: ٤٨) وَقَوْلُهُ : إنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ(الأعراف: ٤٠).المنتقى شرح الموطأ للباجي(٣٣/١) .

.

قال النووي (٦٧٦-٦٣١هـ) ناقلاً عن بعض العلماء : (لاَ يَصِحّ حَمْل هَذَا عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ نَفْيَ قُدْرَة اللَّه ، فَإِنَّ الشَّاكّ فِي قُدْرَة اللَّه تَعَالَى كَافِر ، وَقَدْ قَالَ فِي آخِر الْحَدِيث إِنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَة اللَّه تَعَالَى ، وَالْكَافِر لاَ يَخْشَى اللَّه تَعَالَى ، وَلاَ يُغْفَر لَهُ) .صحيح مسلم بشرح النووي (٧١/١٧) .

.

قال القاضي أبي زرعة العراقي (٨٢٦-٧٦٢هـ) : (قَوْلُهُ (فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ) ظَاهِرُهُ نَفْيُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إحْيَائِهِ وَإِعَادَتِهِ ، وَفِي الْقَوْلِ بِهِ إشْكَالٌ فَإِنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ وَالشَّاكُّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَافِرٌ مَعَ كَوْنِ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى إسْلاَمِهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : إخْبَارُهُ بِأَنَّهُ إنَّمَا فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْكَافِرُ لاَ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى ، وَالثَّانِي : إخْبَارُهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بِأَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَهُ وَالْكَافِرُ لاَ يُغْفَرُ لَهُ مَعَ مَا انْضَمَّ إلَى ذَلِكَ مِنْ الرِّوَايَةِ الَّتِي فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ الصَّرِيحَةِ فِي أَنَّهُ كَانَ مُوَحِّدًا فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهِ)طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٢٦٦/٣)

قال عبد الله بن علي النجدي القصيمي (١٣٥٣هـ) : (قد عد هذا الحديث قوم مشكلاً فإن ظاهره أن الرجل كان شاكاً في قدرة الله لأنه قال : (لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ) وقد غفر له . ومن شك في قدرة الله لم يكن مسلماً ومن لم يكن مسلماً لم يكن أهلاً لأن يغفر له. فالحديث من المشكلات).مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٠ .

وهنا نكتة بديعة ندلك عليها بفضل الله عز وجل ، وهي أن العلماء في معرض شرحهم لحديث الرجل الذي أوصى أولاده بحرق جسده بعد الموت خشية من الله وخوفاً ، كانوا يقولون أن ظاهره يوهم الشك في قدرة الله مع أن قول الرجل المشكل ظاهره أو أحد معانيه يدل على الشك في جزئية معينة وليس الشك في القدرة جملة وتفصيلاً ، ومع هذا لم يقولوا ظاهره يوهم الشك في كمال قدرة الله ، لأن صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، فمن شك في كمال صفة من صفات الله يكون شاكاً في صفة الله نفسها ، وإذا كانت هذه الصفة من صفات الربوبية مثل صفة القدرة والعلم فإن الشك فيها حينئذ يعتبر شكاً في الله سبحانه وتعالى ،

فتنبه إلى هذه النكتة تنزاح عنك شبهات كثيرة بإذن الله تعالى ، وبالله التوفيق .

فلو كان من أصول العلماء إعذار جاهل التوحيد لقالوا: إن هذا الرجل جهل قدرة الله وعذر بجهله ، ولما احتاجوا إلى التأويل الذي لا يخفى ذمه عندهم ولا يلجأون إليه إلا في حالة الضرورة.وكماذكرنا أعلاه فإن قيل: هذا الرجل جهل صفة القدرة ، فعذر بجهله. قلنا: فما الذي دفع العلماء إذن إلى صرف الحديث عن ظاهره واللجوء إلى تأويله ، إذا كان الأمر عندهم بهذه البساطة ؟ ؟ ؟ ؟

ألا يكفي أن يقولوا مثلاً: هو جاهل فعذر بجهله ؟ ؟ وما كانت بهم حاجة إلى كل هذه التأويلات ؟ إلا أن يكون العلماء قد رأوا أن هذه "قضية عين" لا تقوى على معارضة قواعد كلية ثابتة وأدلة مستفيضة ، سبق أن تقررت عندهم في صورة أصل كلي ، مما أوجب أن تتنزل هذه القضية على مقتضى هذا الأصل. وخاصة أن الحديث نفسه يحتمل أوجهاً كثيرة غير هذا الوجه الذي يعارض الأصل المقرر ؟

خاتمة

قال تعالى (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ**) الأنعام: ١١٢ – ١١٣. فدلت هذه الآية على أنه لابد للحق الذي جاء به الأنبياء من أعداء من الإنس والجن لهم شبهات يزينونها ويزخرفونها ليصدوا عن سبيل الله ، وأن هذه سنة قدرية لابد أن تقع كما يدل عليه قوله تعالى (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) فإن (وَلَوْ) حرف امتناع لامتناع ، فدل على أنهم لابد أن يفعلوا ذلك لامتناع المشيئة بعدمه ، ثم ذكر المولى جل وعلا الحكمة من هذه السنة القدرية ، وهي أن الله جعل هذه الشبهات وهي (زُخْرُفَ الْقَوْلِ) فتنة للناس: أما المؤمن فلا يزداد بها إلا بصيرة في الحق ، وأما المنافق فيصغى لها ويرضى بها ولاتزيده إلا ضلالا (وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ). فإنه لا بد من المحنة والفتنة والاختبار في هذه الدنيا. كما قال تعالى (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) العنكبوت: ٢ - ٣.

وهذه الشبهات نوع من الفتنة يختبر الله بها عباده ، ولهذا فإنها لن تنتهي ولن تنقطع مادامت هناك طائفة على الحق قائمة بأمر الله فلابد أن يوجد من يخالفها ويخذلها ، وستنشأ شبهات أخرى ، وفي الكتاب والسنة الرد على كل زائغ إلى يوم القيامة كما قال تعالى (**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**) الفرقان: ٣٣ ، ولايزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته.

وإن بعض هذه الشبهات أعجب كيف نشأت في ذهن صاحبها ولا أجد لها سببا إلا كما قال تعالى (**شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**) الأنعام: ١١٢ ، وكما قال تعالى (**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**) الأنعام: ١٢١.

نسأل الله تعالى أن يعصمنا من مضلات الفتن ، وأن يثبتنا على دينه ، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة ، إنه على كل شيء قدير.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

(واعلم أن الله سبحانه- من حكمته لم يبعث نبيا بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً}**

وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة ، وكتب وحجج كما قال تعالى: **{فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}**

فإذا عرفتَ ذلك ، وعرفتَ أن الطريق إلى الله لا بد له من أعداء قاعدين عليه ، أهل فصاحة وعلم وحجج كما قال تعالى: **{وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}**

فالواجب عليك أن تعلم مِن دين الله ما يصير لك سلاحا تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومُقَدَّمهم لربك عز وجل: **{لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}** ولكن إن أقبلت على الله ، وأصغيت إلى حجج الله وبيناته ، فلا تخف ولا تحزن: **{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً}**

والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين ، كما قال تعالى: **{وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}** فجنده هم الغالبون بالحجة واللسان ، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان.

وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح ، وقد مَنَّ الله علينا بكتابه الذي جعله تِبْيَانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويُبَيِّنُ بطلانها كما قال تعالى: **{وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً}**. قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.) اهـ

د.ماجد كارم